العلّامة الشيخ جعفر المهاجر في حوار مع «شعائر»:

* «واقعةُ السَّبي» سطّرت نهايةَ البيت السفياني

* شُتم يزيد في قلب دمشق، فألقى باللّائمة على «ابن مرجانة»

* لسنا مَدينين للمؤرّخين، وإنّما للجمهور الذي تنبَّه للخَديعة

حاوره: د. محمد أمين كوراني

المحقّق والأكاديمي العلّامة الدكتور الشيخ جعفر المهاجر، صاحب المؤلفات المتميّزة في تاريخ الشيعة وتاريخ جبل عامل؛ (التأسيس لتاريخ الشيعة في لبنان وسوريا)، (ستة فقهاء أبطال)، (الهجرة العاملية إلى إيران في العصر الصفوي)، (جبل عامل بين الشهيدين)، (حسام الدين بشارة أمير جبل عامل)، (مالك الأشتر.. سيرته ومقامه في بعلبك) وغيرها ممّا يدور على توثيق حقبات هامّة ومغيّبة من تاريخ شيعة آل بيت رسول الله صلى الله عليه وآله، وتاريخ جبل عامل، الحاضرة الموالية للإسلام المحمّدي - العَلويّ منذ أن نزلها أصدقُ مَن أقلّت الغبراء وأظلّت الخضراء.

تناول هذا الحوار مع سماحته – على ضوء كتابه: (موكب الأحزان) الذي يرسم خارطة طريق موكب السبايا من كربلاء إلى دمشق- جملةً من العناوين؛ منها هدف الأمويّين من سَبي عيال الإمام الحسين عليه السلام والتّطواف بهم من بلد إلى بلد - دلالات تشييد المشاهد في المواقع والمنازل التي اجتازها موكب السبايا - الخارطة العامّة للطريق التي سلكها الموكب - ولماذا اعتُمدت دون غيرها من الطرق - تداعيات الحدث على مستوى البيت الأموي بعد وصول الموكب إلى الشام.

*** ما هو مفهوم السّبي تاريخيّاً، وكيف ترونه من حيث التخطيط الأموي، في حادثة سَبي عيال الإمام الحسين عليه السلام؟**

بسم الله الرحمن الرحيم. ترجع فكرة السَبي إلى ما قبل الإسلام حيث كان من المعمول به على صعيد المعارك التي تجري في شبه الجزيرة، أنّ مَن ينتصر في المعركة يكون من جملة نتائج انتصاره أن يستولي على النسوة والأطفال.

لكنّ التخطيط الأموي كان مختلفاً، العمل الذي قام به عبيد الله بن زياد بعد يوم كربلاء كان أمراً له مقاصده السياسيّة، ولم يكن المطلوب منه أو المقصود منه أن تكون النساء مملوكات. لذلك أنا أتحفّظ على لفظ السبايا، كان هناك عمل سياسي ومقاصده سياسيّة. سنذكره في حديثنا إن شاء الله.

*** ما هي هذه المقاصد السياسيّة؟**

لقد حقّق عبيد الله بن زياد الهدف السياسي من المعركة، ذلك أنّه نجح في أن يَدفع الكوفة التي كانت في ذلك الأوان المدينة الوحيدة المناجزة -المعارِضة- للحكم الأموي، أن تَقتل الخصم الأساسي لهذا النظام، يعني استخدَم عدوَّه في قتل عدوِّه، وهذه هي الحقيقة. ولو أنّه توقّف عند هذا الحدّ لكان انتصاراً باهراً، ولكنّه أقدمَ على عملَين مستهجنَين وغير مسبوقين.

العمل الأوّل: هو أنّه أمر برَضّ الجسد الطاهر للإمام الحسين عليه السلام.

العمل الثاني: أنّه جمع النساء والأطفال وكَوَّن منهم موكباً، وتحرّك هذا الموكب من ساحة كربلاء إلى الكوفة ومنها إلى الشام.

هـذان العامـلان كانا غـير مسـبوقَين. الثقافـة العربيّـة حتى قبل الإسـلام لديها حُرمة للمرأة، وأنّ الميّت لا يُهان، إنْ قُتِل لا يُهان، لا يُمثَّل به، المرأة أيضاً تُسبى ولكن لا يُشهَّر بها.

حين أمر عبيدُ الله بن زياد بِدَوس الجسـد الطاهر للإمام الحسـين، وحـين أمر بتكوين هذا الموكـب وتوظيفه بالشـكل الذي نعرفه، إنتهـك حرمَتين أساسـيّتين عند الإنسـان العـربي في الجاهليّة وفي الإسلام.

المقصود السـياسي لابن زياد من هذين العملَين هو خلقُ نوع من القمـع الداخلي عند النـاس، بحيث لا يفكّـرون بعمل اعتراضي ضدّ السلطة الأموية، أراد التهديد بما هو أبعد من القتل والموت، الرّسـالة كانـت أنّ مَن يُعارض السـلطة يُعاقـب بالقتل والتمثيل بجسده وسَبْي عياله وأطفاله.

*** متى خرج موكب السبايا من الكوفة باتجاه الشام؟**

نحن نملك تاريخاً دقيقاً لدخول موكب السـبايا إلى الكوفة لأنّهم دخلـوا علَنـاً. فبعد ظهيرة يوم عاشـوراء بات النسـوة والأطفال في سـاحة المعركـة، وفي اليوم التـالي بدأ تحرُّك الموكب من سـاحة المعركـة إلى الكوفـة. وفي مسـاء اليـوم الحادي عـشر، وصلوا إلى المكان المعروف الآن في النجف بإسم «مسجد الحنّانة»، وهو أوّل مشهد من المشاهد التي سنأتي على ذكرها إن شاء الله. [أنظر: «تحقيق» هذا العدد، وفيه تفصيل المشاهد التي شُيّدت على الطّريق التي سلكها موكب السبايا من كربلاء إلى الشام]

لكنَّ عبيد الله بن زياد أراد أن يكون دخولهم بشكل علني، وأراده اسـتعراضاً لغطرسـة القـوّة، فأجّل دخولهـم إلى المدينـة إلى اليوم التـالي. لذا مـن المؤكّد أنّ الموكب دخل إلى الكوفـة في اليوم الثاني عشر من محرَّم.

لكـن نلاحـظ أنَّ المورخـين لا يذكـرون إطلاقـاً تاريخـاً لخـروج الموكـب من الكوفـة، ممّا يدلّ عـلى أنّ خروج السـبايا كان سريّاً، بينما الدخول كان علنيّاً، ولنا أن نتساءل عن السبب.

كان هنـاك مسـألة تأمين الأمـور اللوجيسـتيّة لهـذا الرَّكب الذي سـيقطع المسـافة مـن الكوفة إلى دمشـق. هـذا يحتـاج إلى تحضير التموين والرجال الذين سيرافقون هذا الركب، لأنَّ هناك خشية أن تحصـل ردَّة فعل، فلا بـدّ أن يكون هناك تدبـير أمني في مقابل هذا الإحتمـال، لذلك تقول بعض المصادر إنَّ عدد الذين رافقوا هذا الركب كان في حدود ١٥٠٠ جندي.

هـذا الرَّكب بكامل تشـكيلته مِن جنود، ومِـن خَدَم، ومِن حاملي التموين، إلى آخره، فإمّا أنّ تجمّعه داخل الكوفة كان أمراً عسـيراً يحتـاج إلى مـكان واسـع، وإمّـا أنّـه كان مـن المقصـود أن يكـون خروجـه سريّـاً لأنّه سـيقطع مسـافة طويلة داخل العـراق حيث الناس يعرفـون مَن هؤلاء، وبالتالي كان هناك احتمال بأن تحدث ردّات فعل على هذا الرَّكب ومَن معه. لذلك أنا أجد أنّه من المقنع جـداً أن نقول أنّ خروجه كان سرّيـاً حتى لا يتوقّع الناس مروره بينهـم، وبالتالي قـد تحدث بعض الأمور التي تشـكّل إعتراضاً أو عملاً عدوانياً ضدّ هذا الموكب. [أي ضدّ العسـاكر الأمويّين]، لذلك نقـول أنّـه ليس هنـاك تاريخ دقيق لخـروج موكـب الأحزان من الكوفة.

*** ما هي المدّة التي استغرقها مسير الرّكب من الكوفة إلى الشام؟**

أيضـاً نحـن لا نملك مصـادر مؤكّدة أبـداً، لمـاذا؟ لأنّ الموكب لم يَفُـز باهتمـام المؤرّخين أو ورواة الأخبار، ذلـك أنّ فكرة التاريخ المكتوب نشأت بعد قرنين أو ثلاثة.

هذا التاريخ المكتوب يعتمد على الأخباريّين، أي تناقل الأحداث شـفويّاً، والثروة الشفويّة عندنا -سواء في تاريخ الأدب أو تاريخ الأيّـام والأحداث التي جرت- هي التي اسـتفاد منهـا المؤرّخون فيما بعد ودَوّنوها.

لاحـظ معـي أنّ الذين حفظـوا لنا من أدبيّات الحـدث في كربلاء هم أناس عاديّون. مثلاً «عقبة بن سمعان» -الذي كان مع الإمام الحسـين عليه السلام في كربـلاء، ولم يُقتل- صادف أنّه سُـئل عن أدبيّات الأحداث، فسُجّلت أقواله ووصلتنا إلى اليوم.

لكـنّ النـاس الآخريـن الذيـن شـاهدوا الموكـب لم يكترثـوا بأن يحفظـوا، أو يسـجّلوا، أو يتذكّـروا، أو يتذاكـروا بـين بعضهـم البعـض، بحيث يوثّقوا الخبر شـفويّاً. بل تـمّ التعامل مع الحدث أنّه عبارة عن قضيّة بسيطة؛ مجرّد موكب مارّ في طريقه إلى عاصمة الدولـة، ليس أكثر. ولولا ما حصل فيما بعد من اسـتفاقة الناس على الحقيقة، واكتشـافهم للخديعة التي مارستها السلطة عليهم، فعمدوا إلى تشـييد المشـاهد على طـول طريق الموكـب، لَما وصلنا شيء.

نحـن مَدينـون للجمهور هنـا. لسـنا مدينين لمؤرّخـين ولا لرواة الأخبـار، بل نحـن مدينون للجمهور الذي اسـتيقظ من الخديعة الكبـيرة الـتي مارسـتها عليـه السـلطة الأمويّـة، فعمـد إلى إقامة المشـاهد التي كانـت في البداية كومة أحجار، لنعـرف بأنّ الرّكب نـزل هَهنا، لذلك نـرى عدداً كبيراً منها على طـول الطريق، وهي سبيلنا الوحيد لمعرفة المَسار الذي سلكه هذا الموكب.

*** لمـاذا اختـار النظـام هـذا الطريق الطويـل لإرسـال الموكب إلى الشام؟ كعمل استعراضي ام لإرهاب الآخرين؟**

كلاهمـا، لكن فعـل إرهاب الناس لا يتحقّـق إلّا إذا عرف الناس هويّـة الرّكـب، في حين أنّ مصلحـة ابن زياد كانـت في أن يُخفي حقيقة مَن هم في عِداده. لذلك نعتقد أنّ قصده الأسـاسي كان أن

يقدّم نفسه للسّفيانيّين -الأسرة الحاكمة في دمشق، والتي يعتبر ابن زياد أنّه منها، لأنّ معاوية قد استلحق أباه بأبي سفيان - أنّه الرجل الذي حقّق لهم هذا النصر وهذا الإنجاز السياسي.

لم يبقَ من بعد الإمام الحسين عليه السلام وحادثة كربلاء مَن يمكن أن تقول عنه أنّه عدوّ للسلطة الأمويّة، أو أنّه عدوٌّ يُخشى خطرُه. لكنّ جريمة الأمويّين في سَبي العيال ورَضّ الجسد الشريف، قلَبتْ «نصرَهم» إلى هزيمة. ﴿..وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ ٱللَّهُ ۖ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَٰكِرِينَ﴾ الأنفال:٣٠.

*** ما هي أبرز المحطات والمشاهد في طريق موكب السبايا؟**

هذه السلسلة من المشاهد ما بين كربلاء والشّام تثير عندنا أقصى العَجب:

أوّلاً: تثير عندنا شكّاً كبيراً بأنّ الأمويّين في دمشق كانوا يملكون مشاعر الناس، بل يتبيّن أنّ الأكثرية الصامتة كانت تطوي قلوبها وعقولها على أمر مختلف تماماً عمّا عليه الجوّ في دمشق، ولولا ذلك لما كان عندهم أيّ حافز لتسجيل مشاعرهم وولائهم ووجدانهم عن طريق تشييد هذه المشاهد.

ثانياً: إقامة هذا العديد من المشاهد عبر ٢٠٠٠ كلم تقريباً يدلّك على أنّه كان هناك نوع من التواصل الجماهيري الهائل، وإلّا كيف اتّفق هؤلاء الناس -في ذلك الزمان- على أن يعبّروا عن وجدانهم وولائهم عن طريق إقامة المشاهد.

هناك قاعدة معروفة جيداً في العمل السياسي هي أنّك تستطيع أن تغلق الأفواه، لكنّك لا تستطيع أن تُلغي الذاكرة. لا تستطيع أن تُلغي الأساليب البسيطة التي يلجأ إليها الناس للتعبير عن هويّتهم الحقيقيّة المطموسة بفعل سطوَة السلطة.

لذلك ممّا يثير عندنا أقصى العَجب اليوم، أنّنا نرى من الكوفة إلى دمشق هذا العديد من المشاهد التي بُنيت بناءً جعلها قابلة لأن تبقى حتى اليوم. هذا يدلّ دلالة كبيرة على أنّ ولاء الناس كان لأهل البيت عليهم السلام، لكنّه كان ولاءً مطموساً.

نحن نعرف من خلال التركيبة السكانيّة لمنطقة الجزيرة من الموصل إلى حلب، أنّها كانت مصبّاً لهجرات متتالية من العراق. فمثلاً بعضُ بطون ربيعة -وكانوا من أصحاب الإمام عليّ عليه السلام- هاجروا إلى منطقة الجزيرة. بدورها حمص كانت مصبّاً لهجرة همدانيّة قبل كربلاء بحوالي عشرين سنة. كذلك الموصل كان فيها جالية من الموالين لأهل البيت. نحن عندنا تصوُّر خاطئ أنّ الشام التاريخي كان مملوكاً وجدانيّاً من الأمويّين، وهذا أمر غير صحيح إطلاقاً.

*** هل اختارت السلطة المرور عبر المراكز التي تتميّز بثقل سكّاني لإيصال رسالة؟**

لا شكّ في ذلك. السلطة أو عبيد الله بن زياد بالتحديد، كان أمام خيارين في تحديد مسار الموكب. هو محكوم بالأماكن التي تتوفّر فيها المياه والظِّلال، الخيار الأقرب هو أن يسلك طريق الكوفة، عانة، قرقيسيا، دير الزور، والرقّة وهي مجرى الفرات، وتتوفّر فيه المياه، لكنّه مأهول بتجمّعات صغيرة شبه بدوية.

في حين أن طريق دجلة يمرّ بتِكْريت، والموصل، ونَصيبين، وحرّاء، والرقّة، وهي مناطق عريقة ومعروفة منذ الرُّومان. هو أراد أن يوصل رسالته إلى أكبر عدد ممكن من الناس. هناك فارق كبير في المسافة بين طريق دجلة وطريق الفرات حوالي ستّمائة كيلومتر، وهذا ليس فارقاً قليلاً. فعندما عمد عبيد الله بن زياد إلى اختيار طريق دجلة، يعني أنّه يريد أن يوصل رسالته إلى أكبر عدد من الناس، ذلك لأنّ الطريق الفراتي، وإنْ وُجد فيها حياة، لكنّها في قلب الصحراء وهي عبارة عن مراكز بدويّة ليس فيها الثقل السكّاني الكبير.

*** هذا يقودنا إلى الحديث عن المشاهد.**

الشيخ المهاجر: الحقيقة أنّ ممّا يذهلنا أنْ نجد حتى اليوم هناك مجموعة من المشاهد المتوالية حيث استقرّ المقام ولو لليلة أو ليلتين. ولا شكّ أنّ المشاهد المتبقيّة حتى يومنا هذا هي أقلّ بكثير من المشاهد التي أقامها الناس حيث نزل الموكب.

على سبيل المثال، هناك ٦٠٠ كلم ما بين المشهد الأوّل في الكوفة -مسجد الحنّانة- والمشهد الثاني في الموصل، وهذه المسافة تستغرق على الأقل خمسة عشر يوماً لاجتيازها، إذن هناك خمس عشرة محطة، لكنّنا لا نجد مشاهد فيها. لا بدَّ أنّه كانت هناك مشاهد واندرست نتيجة الإهمال. فهذه المشاهد التي نجدها هي البقيّة الباقية من عديد أكبر بكثير من تلك التي اندرست مع طول الزمان.

هذه المشاهد تبدأ من «مسجد الحنانة» قبل مدينة الكوفة وهو في الأساس مشهد تحوّل مع الوقت إلى مسجد.

المشهد الثاني: في الموصل، وهو مشهد معروف، ربّما درَس، لكنّ بعضَهم وعد بأن يزوّدني بصوَر لمشهدٍ موجودٍ في المدينة حتّى يومنا هذا.

المشهد الثالث: في نَصيبين وهي اليوم داخل تركيا.

المشهد الرابع: مشهد بالس في بلدة «المسكنة»، ولا يزال قائماً على الرغم من أنّ «بحيرة الأسد» الإصطناعيّة غمرت كامل البلدة القديمة.

المشهد الخامس: في حلب، -وهو جبل جوشن- أضحى اليوم ضمن الأحياء المستحدثة.

المشهد السادس: في حماه، وهو الذي تعرّض للتحريف على يد "نورالدين" محمود زنكي المعروف بنشاطاته المعادية للتشيّع، فجعله مسجداً ليخفي حقيقته التي هي مشهد -كما في بعلبك- فسمّاه «مسجد الحسنَين» ونزع عنه صفة المشهديّة.

المشهد السابع: في مدينة حمص التي كانت مصبّاً لهجرة الهمدانيّين، فتحوّلت من مناصرة الأمويّين إلى التشيّع لأهل البيت عليهم السلام.

المشهد الثامن: في مدينة بعلبك اللبنانيّة، حيث يُوجد مسجد خَرِب يُسمّيه الناس «مسجد رأس الحسين عليه السلام». لكنّه لم يكن مسجداً في الأساس، وإنّما حوّله الظاهر بيبرس إلى مسجد في محاولةٍ منه لنزع صفة المشهديّة عنه.

هذا المشهد هو أهمّ المشاهد الحسينيّة المُشيّدة على طول الطريق الذي سلكه «موكب الأحزان»، والسبب هو أنّ منطقة بعلبك كانت -كحِمص- من منازل قبيلة همدان، وبابُها المؤدّي إلى حمص، كان يُسمّى «باب همدان»، وهذه الجبال حافلة بآثار الهمدانيّين، وهم سلفنا الطاهر. لذلك نرجّح بأنّ الهمدانيّين هم مَن شيّدوا هذا المشهد، ورفع الظاهر بيبرس -لاحقاً- بنيانه بهدف التعمية على صفته الأساسيّة.

*** هل مرّ الموكب من الطريق الشرقي لبعلبك، أي من «سرغايا» و«جنتا»؟**

ليس هناك دليلٌ على ذلك بتاتاً. والمعروف جيّداً أنّ طريق دمشق هو هذا الطريق الموجود حتّى الآن واسمُه طريق الشام. ثمّ أنّه ليس ثمّة ما يدعو هذا الموكب الكبير المؤلّف من ألفي شخص تقريباً -وفيهم الأطفال والنساء- إلى الصعود باتجاه هذه الجبال العسيرة، لذلك نقول إنّ مرور الموكب بـ«جنتا» و«سرغايا» أمرٌ صعبٌ جدّاً. وقد قلنا إنّ الغاية من الموكب أن يراه أكبر عدد من الناس، فلماذا يسلك الطريق غير الطبيعي حيث المراكز السكانيّة الصغيرة، في حين أنّ طريق الشام كان دائماً عامراً بالسكّان. لذلك لا بدّ أن يكون الطريق الذي سلكه الموكب هو: بعلبك - شتورا - عنجر - وادي الحرير - الشام. [أنظر: «تحقيق» هذا العدد].

*** ما هي التداعيات السياسيّة على مستوى البيت الأموي، نتيجة إقدامهم على سبي حُرَم رسول الله صلى الله عليه وآله؟**

ممّا لا ريب فيه أنّ ما أراده ابن زياد استعراضاً لغطرسته ووسيلةً إلى قمع الناس قمعاً داخلياً وإرهابها، أدّى إلى عكس المقصود فقضى

د. كوراني يحاور العلّامة المهاجر

عليه تماماً. ﴿..وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ﴾ الأنفال:٣٠.

سُرّ يزيد بادئ الأمر بهذا الإنتصار المزيّف، وتمثّل بأبيات شعريّة تنمّ عن تشفّيه وزهوه، لكنّ وجهة الأحداث سرعان ما تبدّلت، بعد دخول السبايا إلى الشّام. حينها اضطُرّ يزيد إلى منح الإمام زين العابدين عليه السلام شيئاً من الحريّة لامتصاص النقمة الجماهيريّة، وقال في ما قال: كنت أرضى من طاعتكم دون قتل الحسين، وأخذ يُعيّر ابن زياد بأمّه، ويُحمّله مسؤولية ما جرى.

وبديهيٌّ أنّ الأمر لم يكن عن صحوة ضمير، وإنّما هالَه تغيُّر الناس عليه، وهو ما عبّر عنه صراحة بقوله: «فبغّضني -ابنُ زياد- إلى قلوب المسلمين، وزرع لي في قلوبهم العداوة، فبغضني البرّ والفاجر».

تتحدّث النصوص التاريخيّة عن حالة تشبه الإنفجار، فقد بدأت تترامى إلى مسامع يزيد عبارات شتمه في أرجاء الأمصار الإسلاميّة، وحتى في دمشق العاصمة حيث بات لعنُه علنيّاً من غير مواربة.

ومن التداعيات الكبرى، الإضطراب الذي حصل داخل البيت الأموي، وأدّى إلى انتقال السلطة من البيت السُّفياني إلى البيت المرواني، ومن ثمّ إلى الزبيريّين الذين لولا أخطاؤهم السياسيّة الفظيعة لَما رجع الملك إلى الأمويّين، الذين تراجع سلطانهم فبات محصوراً بتلال «البلقاء»، أي موضع مدينة «عمّان» اليوم في الأردن.

بل إنّ هناك من تداعيات الحدث ما يدلّ بشكل واضح جداً على أنّه نشأت حالة من الصراع الشرس داخل البيت الأموي، الذي لمس التفاعل الهائل عند الجماهير فَحَمَّل يزيد ما آلت إليه الأمور. نتلمّس ذلك من خلال مقتل ثلاثة من الخلفاء -يزيد ومعاوية ابنُه ومروان بن الحكم الذي غمّته زوجته بوسادة- في غضون أربع سنوات وبطريقة غامضة، مبالغٍ في غموضها، ما يؤكّد على أنّ القَتَلَة كانوا من داخل البيت الأموي.